

قصيدة (فتح الفتوح) لأبي تمامدراسة تحليلية بلاغيةد. سالم بن محاد بن علي المعشني

The poem (Fatah al-Futuh), Abu Tammam

Aanalytic study

الإسم الكامل للباحث الأول، د. سالم بن محاد بن علي المعشني

جامعة ظفار – صلالة – سلطنة عمان

تاريخ الاستلام: 2024/03/24 تاريخ القبول: 2024/03/27 تاريخ النشر: 2024/04/01

ملخص:

قصيدة (فتح الفتوح) ملحمة شعرية خالدة في التراث العربي . أحكم مؤلفها بناءها إنْ على مستوى الشكل والتركيب ، وإنْ على مستوى المضمون؛ بحيث يتسق كل واحد منهما مع الآخر إيما اتساق . أعلى أبوتمام في هذه الملحمة مكانة الجهاد ، وأعاد للعرب والمسلمين مجد الفتوحات ؛ بعد أن بوأ المسلمين مكانة عالية ، وخفض المشركين إلى الأسافل . عوّل الشاعر على المسلمات المادية المتمثلة في أداة الجهاد والعدل (السيف) وجعلها الوسيلة الأنجع لتحقيق النصر ، ودحر الأعداء ، بينما أبطل دعاوي أصحاب الكتب من المنجمين والمشعوذين ؛ الذين يزرعون الأراجيف والأكاذيب لتنشيط عزائم المجاهدين في سبيل الله . أما من الناحية البلاغية فقد اعتمد الشاعر على أسلوب البديع والرخرفة اللفظية ؛ لخدمة غرض النص ، دون الإساءة إلى أهدافه ومراميه . ثم لم ينس أن يمدّه بالاستعارات والتشبيهات والكنائيات الموفقة . لقد جاءت لغة القصيدة قوية ومعبرة ، بل و مجلجلة صارخة بالصوت ، تريك نبران المعركة بالعين ، وتسمعك قعقة السيوف وحممحات الخيل ؛ مما لا يدع مجالا للشك من أن أبا تمام شاعر وفيلسوف ؛ استطاع أن يعلن للفكر الإنساني تماهي معطيات (الخيال) مع معطيات (العقل) ولم يعد يفصل بينهما فاصل سوى أن يخرجهما المتلقي الحاذق ، والناقد المتبصر إخراج الفنان الدرامي عندما يقوم بإحياء العمل الأدبي / الخيالي وتجسيده في مواقف حسية ، ومشاهد درامية حية .

Study summary:

The poem (Fatah al-Futuh) is an immortal poetic epic in the Arab heritage. Its author is the wisest in constructing it, whether at the level of form and structure, or even at the level of content. So that each one is consistent with the other. In this epic, Abu Tammam raised the status of jihad, and restored to the Arabs and Muslims the glory of the conquests. After the Muslims occupied a high position, and reduced

the polytheists to the lowest. The poet relied on the material axioms represented in the tool of jihad and justice (the sword) and made it the most effective means to achieve victory and defeat the enemies, while invalidating the claims of the book owners of astrologers and sorcerers. Those who sow arrogance and lies to discourage the resolve of the Mujahideen in the cause of God. In terms of rhetoric, the poet relied on the exquisite style and verbal eloquence. To serve the purpose of the text, without offending its goals and objectives. Then he did not forget to provide him with successful metaphors, similes and euphemisms. The language of the poem came strong and expressive, and even resounding and blatant in the voice. You can see the flames of battle with your eyes, and you can hear the clatter of swords and the roar of horses. Which leaves no room for doubt that Aba Tammam is a poet and philosopher; He was able to announce to the human thought the identification of the data of (imagination) with the data of (the mind), and no longer separated between them except that they are brought out by the skilled recipient, and the insightful critic directed by the dramatic artist when he revives the literary / imaginary work and embodies it in sensory situations and live _____ dramatic scenes_____

*المؤلف المرسل: الاسم واللقب

التعريف بالشاعر :

"حبيب بن أوس بن الحارث الطائي المعروف بأبي تمام، ولد أبو تمام سنة 803م لأبوين مسيحيين أسلمًا فيما بعد، في قرية جاسم وهي قرية من قرى حوران جنوب سورية، استدعاه الخليفة العباسي إلى مركز الخلافة العباسية في بغداد وقدمه على الشعراء في عصره، كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة، فصيح اللسان والبيان، يحفظ الكثير من شعر العرب وأراجيزهم، ويقول الصولي في أخبار أبي تمام: "إنه كان أجشَّ الصَّوت يصطحبُ راوية له حسن الصَّوت فينشد شعره بين يدي الخلفاء والأمراء"، كان شعره قويًا جزلًا، حتَّى ناطح كبار شعراء العصر العباسي كالمتنبي والبحتري، وقد كتب أبو تمام مؤلفات كثيرة، منها: فحول الشعراء وديوان الحماسة ومختار أشعار القبائل ونقائض جرير والأخطل، وقد توفيَّ أبو تمام في الموصل عام 845م" (1)

الهدف والمنهج :

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية وصفية لقصيدة (فتح الفتوح) للشاعر العباسي أبي تمام ، وذلك من خلال المنهج التكاملي وتركز على التحليل البلاغي ، وتستعين ببعض أنماط الدراسة الأسلوبية .

المقدمة :

تختال ملحمة أبي تمام الشهيرة (فتح الفتوح) – على امتداد عصور التاريخ - في ثوب فضفاض من التيه والزهو ؛ نظرا لما تمثله القصيدة من أهمية كبيرة في ديوان الشعر العربي ، وتحديدًا في غرض الفخر ، والمديح ، ثم ما تتميز به هذه القصيدة من اتساق ومؤامة شديدين بين اللفظ والمعنى . وقد ركزت الدراسة على ركني النص (الشكل والمضمون) ؛ كشفت في الأول عن حمولة بلاغية هائلة من خلال مجموعة الاستعارات والتشبيهات والكنائيات الموفقة ، وكذلك التوظيف المكثف للمحسنات البديعية : من تدبيج وطباق وإيجاز وحسن تقسيم ، وتكرار وتشطير وجناس الأمر الذي من شأنه تقوية المعنى ، وإحداث الانسجام التام أثناء الربط بين المظهر التركيبي في الحدث الكلامي ، وبين المظهر الدلالي وهو ما يُعرف ب (الإيقاع النحوي) . ثم تتعزز القيمة الفنية لهذه القصيدة الشهيرة من خلال ما تقدمه من مولدات إيقاعية ، كالتوازي التركيبي ، وبقية الصيغ الصرفية المتماثلة والقوية ، وتكرار الأصوات الدالة على الشدة والصلابة ، وتكرار البنى اللفظية والجمال ؛ مما يسهم في تقوية إيقاع الفكرة والدلالة . وقد كان للمفارقة الشعرية لاسيما (المقابلة) دور بارز في كسر نمطية الصور المألوسة ، وخلخلة اللغة باتجاه تعزيز التناقضات ؛ مما يكشف عن أبعاد جديدة وقراءات جمالية أخرى لم تكن في الحسبان . ولم يغفل الشاعر كل ما من شأنه توليد وتعزيز حججه وبراهينه الدامغة والمرافقة لمعطيات العقل ؛ بغية تنفيذ أراجيف المنجمين ، وخزعات المشعوذين . وقد قدم كل ذلك من خلال الصيغ الانشائية المختلفة . أما على المستوى الثاني (المضمون) فقد رأينا أباتمام يزهو بممدوحه ، وبالمسلمين ، ويعلي من قيمة الجهاد ، ويجعل الفاتحين العرب من أهل الإيمان في (صعد) والمشركون وأهل الشرك في (صيب) . ثم لانبث أن نجترح طعم اللذة ، وحلاوة النصر عقب الجهاد العسير ؛ وهي فلسفة أبي تمام التي اختزلتها بيته الشهير (بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها // تنال إلا على جسر من التعب) ؛ ومن هنا كان أبوتمام سبقا إلى هذه القاعدة الفلسفية المتمثلة فيما يُعرف ب (طريق الراحة التعب) .

الدراسة :

من بداية الاستهلال تتجلى لنا العدة المادية التي كانت سببا في اجتراح النصر ، وتحقيق اللذة المعنوية ، ونشوة الزهو والفخر. هذه العدة المادية تتمثل شكلا في دوال من قبيل : السيف / بيض الصفائح / شهب الأرماح) ، يقابلها انسجام تام ، أو اتساق بين جلي في المعنى ، ومن

الناحية البلاغية يعمل التضعيف في (السيف / حده / الحد الجد / اللعب الشك / الريب السبعة / الشهب) يعمل على تقوية المبنى لفظا وصوتا ، وبالمقابل تقوية المعنى ، ناهيك عن الوظيفة البلاغية لتقديم الخبر في (في حده الحد) حيث لأسلوب التقديم سمة أسلوبية بالغة الأثر في معرفة خواص تراكيب الكلام وكشف خبايا النفس والنفوذ إلى أعماقها وتصوير شخصيات المشهد في صورة حضورية تبيّن ما عليها من فرح أو ترح أو اضطراب أو توتر أو إيمان أو نفاق أو نحو ذلك . وأسلوب التقديم والتأخير يعمل على التغلغل والانتشار في كافة سياقات النص .(2)

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي
مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ
بَيْنَ الْخَمِيسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ (3)

والعرب أمة بيان وسيف ، منذ الجاهلية والفروسية وصون الحمى والأخذ بالثأر ، والفخر بالقبيلة ديدن الشاعر العربي القديم . وإذا كان الفخر قديما يقوم على القبلية ويمجد الذات ، فقد تغيرت مفاهيمه ومنطلقاته بعد الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم حيث " جاءت رسالة الإسلام ترسم للعرب مثلاً عليا جديدة في التشريع وسائر نواحي حياتهم، موجهة لهم إلى الخير، فجعلت باعث البطولة ليس السلب والنهب والإغارة حتى على الأخ، بل هو الجهاد والقتال في سبيل الله، وفي سبيل نشر دينه العظيم. فمن انتصر فرح بالفوز، ومن استشهد فاز بجنت النعيم، وله إحدى الحسينين " (4) . ولا يخفى اعتداد الشاعر بالسيف والصفحة وبشهب الأرماع إذ هي - كما مر بنا - الوسائل المادية التي من ورائها يتحقق النصر . والنصر سيتولد عنه (الزهو واللذة) ؛ والشاعر سلفا قد أتقن بناء الشكل الفني للأبيات ، وشرع في هندستها بحيث تواكب جلال المضمون ، ونبل الغاية والمقصد ؛ فليس هناك غاية سامية ، ومقصد نبيل كجهاد الكفار ، ونجدة المظلوم ، ونشر الإسلام إلى أرجاء المعمورة ؛ لذلك كان التضعيف ، وأفعال التفضيل، والمدود ، والتعريف ، والتوكيد ، والنفي ، والجناس ، وحسن التقسيم ، وأسلوب المحاجة ، وتقديم البراهين كان كل ذلك سياقا أسلوبيا يعضد متانة البناء الشكلي الأنسب ، والوعاء الأجل الحدير بحمل هذا المضمون وهذا المعنى الجليل .

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ // فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ // بَيْنَ الْخَمِيسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

وتزيد حروف المد من قوة المعنى ، ومتانة البناء ، ولها فاعلية نغمية قوية جدا ؛ تناسب المضمون الذي تقدمه ؛ ثم لها امتداد زمني قبلي وبعدي كما يذهب إليه (ابن جني) من أن هذه الحروف تظهر الصوت الواقع قبلها، وتساعد على مضاعفة ذبذباته، وعلى استرساله في الزمن، وبالتالي فإن فاعليتها النغمية حاصلة في زمنين: الزمن القبلي، زمن الصوت الأول الواقع عليه الامتداد والزمن البعدي، زمن الصوت الممتد إليه الامتداد المدي .(5)

ولا يخفى ما للصورة الشعرية في (شهب الأرماح) من رهبة وقوة ، وقد بناها الشاعر على التشبيه البليغ من خلال صورة بصرية فلكية ؛ حيث غدت الرماح في لمعائها وهي في أيدي المسلمين كلمعان الشهب ليلا في كبد السماء ! إنه صوت قوي، وعاطفة جياشة، تمتاز بالحقيقة الناصعة، وفي الألفاظ ضخامة تناسب ضخامة الموقعة، والأبيات في النص كتائب حربية، وصلصلة سيوف وقعقة رماح . هي بحق فرحة النصر ، وزهو المنتشي بصولجان الظفر ؛ لاسيما عندما يكون النصر في سبيل الحق والكرامة ؛ وجهادا في سبيل الله . (6)

فَتَحُ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ // نَظَمَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثَرَ مِنَ الْخُطَبِ
فَتَحُ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ // وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
يَا يَوْمَ وَقَعَةٍ عَمُورِيَّةٍ. إِنصَرَفَتْ // مِنْكَ الْمُنَى حُفْلًا مَعْسُولَةً الْحَلْبِ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صَعْدٍ // وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِي صَبَبِ

ويعضد الجناس في (فتح الفتوح) مقصدية الشاعر في رفع مكانة هذا الفتح إلى محط الشعريان ، ومجال النجوم والقمرين ! كيف لا ؟ وقد تفتحت له أبواب السماء ، وبرزت له الأرض كالحسنة في أجمل ثيابها متكنا على الاستعارة المكنية ، ثم يتحدد من خلال المقابلة بين شطري البيت الأخير مكان كل واحد من طرفي العلاقة (المسلمين والمشركين) فالطرف الأول في صَعْدٍ، بينما الطرف الثاني في صَبَبٍ. يلاحظ في الأبيات تكرار حرف الحاء ثلاث مرات ورغم ثقله لانشعر بذلك ؛ كون الشاعر تخلص من هذا الثقل بالفصل بين الحاءات ؛ فقلب الثقل إلى خفة عن طريق حروف الامالة (علة) التي حرص أن يسبق كل واحدة منها حاء من الحاءات الثلاث . (7)

وتكرير لفظة (الفتح) اسما وأخرى فعلا له أهمية في الربط بين المظهر التركيبي في الحدث الكلامي ، والمظهر الدلالي ؛ حيث يسهم في بلورة نسق متواز يسميه (غي ولسن آلن) (الإيقاع النحوي)(8)

ومن نفائس هذه القصيدة الخالدة مانجده من ملاءمة بين المعنى والمبنى ؛ في اجتماع الشدة واللين في كثير من مقاطع القصيدة ، ومايقابل ذلك من نتائج إيجابية في عالم الواقع من خلال اجتراح الفعل في ميدان المعركة . ولننظر إلى قوله : (تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ // لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبٍ) يبدو المبنى هنا متخما بالدوال المنتقاة بعناية فائقة ؛ وقد زاد ذلك جمالا أسلوب التشطير بعد أن قسم الشاعر البيت " إلى أربعة أقسام جمع بينها الوزن الواحد ، ومن عزو جميع الأفعال إلى الله تعالى والتقرب منه ، وتكرار لفظ الجلال ثلاث مرات

يعطي القوة وإشارات لصفات دينية أطلقها الشاعر على الخليفة المعتصم ؛ وهذا بحكم كون الشاعر عربي أصيل من طيء القبيلة العربية المشهورة ، فضلا عن تكرار حرفي الباء والميم ؛ مما جعل القصيدة تتمتع بتوازي صوتي رائع " (9)

وتجسد الصورة الشعرية في (يا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمَوِيَّةٍ. انصَرَفَتْ // مِنْكَ الْمُنَى حُقْلًا مَعْسُولَةً الْحَلْبُ) تجسد مكانة هذه الموقعة ؛ من حيث علو منزلتها ، ومن حيث بلاغة الصورة ؛ بعد أن جسد المعنوي (المنى) ، واستعار لها ماهو من خصائص الحيوان ؛ فاستحالات إلى نياق أو شياة حفل معسولة الحلب . والمعسولة الحلب : هي التي امتلأت ضرعها باللبن ، والمعسولة التي أضيف إليها العسل ، يقال : عسلت الطعام فهو معسول ، وعسلته فهو مُعَسَّل ، والحَلْب : ما حُلِب من اللبن. وفي قوله :

لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنْتَ
لَهُ الْعَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ وَالْقُضْبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
لِللَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَغِبٍ

يأتي " التوصل إلى جملة من المولدات الإيقاعية كالتوازي التركيبي بين وحدات موقعة ثلاث (بالله منتقم / لله مرتقب / في الله مرتغب) : باستخدام التوازي التركيبي أحدث توازيا أفقيا ، وتقفية داخلية (معتصم / منتقم / مرتقب / مرتغب) وإجراء صيغ صرفية متماثلة هي صيغة اسم الفاعل فضلا عن تكرار نفس الكلمة في ثلاثة مواضع هي لفظة (الله) ويضاف إلى ذلك تكرار أصوات تشترك في الدلالة على الشدة والقوة والصلابة كالميم والباء " .(10)

ويفصح هذا الإيقاع الموسيقي الرائع عن إمكانية فائقة في تطويع اللغة وتشكيلها وفق إرادة الشاعر ووفق مقتضى الحال ، وذلك من خلال تكرار بني لفظية ذات صفات متشابهة ؛ خاصة الأسماء المشتقة كما مر بنا في : (مرتغب / منتقم / مرتقب / معتصم) وهذا "يعين على تقوية إيقاع الفكرة ، ويدعم الدلالة التي يعبر عنها النص " (11)

أما السماجة التي غنيت منها عيون الناظرين عن كل حسن بدا ، أو منظر عجب ، فقد عززه الشاعر وأخبر عنه بقوله : وحسن منقلب تبقى عواقبه // جاءت بشاشته من سوء منقلب . والسؤال هنا كيف يتأتى حسن المنظر من السماجة ؟ أم كيف ينتج عن سوء المنقلب حسن المنقلب ؟ إنها فلسفة أبي تمام القائمة على اجتراح اللذة من الألم ، أو جني الراحة الكبرى من مورد الموت والهلاك ! وفي الأخير يبقى الحكم بلاغيا لوظيفة المقابلة الضدية ، والمفارقة الشعرية المفارقة التي " هي تجاور خارج عن المألوف لبعض الأفكار المتناقضة، ويتجلى هدفها في تقديم عرض مدهش أو رؤية غير متوقعة. وتتجسد وظيفة المفارقة في كونها إحدى طرق الصياغة والتحليل الأدبيين، إذ تنطوي

على النظر في العبارات المتضاربة ظاهرياً واستخلاص الاستنتاجات إما للتوفيق فيما بينها أو لتفسير وجودها. (12)

أو لنقل هي تقنية تهدف " الى خلخلة النسق المعياري وانتهاك قوانين العرف اللغوي لاستخدامها اللغة التناقضية وسيلة لها في استثارة عناصرها الجمالية " (13)

سَمَاجَةً عَنِيَّتْ مِنَّا الْعُيُونُ بِهَا
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَأَ أَوْ مَنَظَرَ عَجَبٍ
وَحُسْنٌ مُنْقَلَبٌ تَبْقَى عَوَاقِبُهُ
جَاءَتْ بِشَاشَتِهِ مِنْ سَوْءٍ مُنْقَلَبٍ

ويتصاعد خطاب المفارقة الضدية ، وتتوالى الفتوحات المدهشة في أمر هذه (البكر) ، معركة (فتح الفتوح) ؛ البكر التي لم تطلها كف حادثة ، كلا ولم تترق إليها همة النوب ؛ إنها لم تنزل من عهد (إسكندر) أو من قبل ذلك في قمة الشباب والفتوة رغم أن الليالي قد شابت ! . ثم عندما مخض الله لها السنين مخض البخيلة كانت زبدة الحقب ! والكربة السوداء التي طالت الروم اسمها عند المسلمين فراجة الكرب ! وتقف هذه (البكر) وقد شخصها الشاعر وجعلها أنثى في قمة الشباب والقوة ؛ لتصبح بمثابة الصخرة التي لاتلين ، ولاتكثر لعاديات الزمن . وتنعقد المبالغة والمفارقة الشعرية عندما لاترقى إلي هذه البكر الخارقة همة النوب ، ولا يزور مفرقها الشيب ؛ زبدة الحقب رغم السنين البخيلة و فراجة الكرب رغم الكربة السوداء !

بِكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ
وَلَا تَرَفَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ
شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ
حَتَّى إِذَا مَخَضَ اللَّهُ السِّنِينَ لَهَا
مَخْضَ الْبَخِيلَةِ كَانَتْ زُبْدَةُ الْحَقْبِ
أَتَتْهُمْ الْكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً
مِنْهَا وَكَانَ اسْمُهَا فَرَاةُ الْكَرْبِ

ثم في تهكم وسخرية يقول :

أَيُّ الرِّوَايَةِ بَلَّ أَيْنَ التُّجُومُ وَمَا
صَاغُوهُ مِنْ رُخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

والزخرف الشكلي فاضح إذا كان أجوف المضمون ، والاعتداد هنا بالفعل لا الكذب ، ويشكل الاستفهام التنكري صيغة انشائية تعمل على توليد حجج دامغة على بطلان رواية المنجمين ؛ وفي ذلك ركيزة إيمانية قوية تتقاطع مع المعطيات المادية التي تعول على العقل ، والحقائق الموضوعية في وجه أراجيف المشعوذين والمنجمين الذين لاتغادر أطروحاتهم الكذب والدجل ، واستغلال الدهماء من الناس لتمرير شعوذاتهم . وفي لفظتي (الرواية والنجوم) من التضعيف والمدود مايملأ فم المتلقي قوة ، ويهب لسانه صوتا مجلجلا . ثم لا يختلف الحال في (ما و صاغوه وفيها) وتمكين التتوين في (زخرف) والباء الجهور المكسور في (كذب).(14)

ومن الألوان البديعية الجميلة والمهمة (الكناية) وهي : صورة عرضية مباشرة تشير إلى معنى غير معناها الأصلي .(15)

يقول أبو تمام :

إِنَّ الْحَمَامِينَ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمْرٍ // دَلُّوا الْحَيَاتِينَ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشْبٍ
فضلا عما قدمته الكناية نجد في البيت لونا آخر اشتهر به أبوتمام ؛ هو لو (التدبيج) وهو من ألوان التصوير العقلي أو الفلسفي ؛ ويعبر عن فكر بعيد . والشاعر في هذا المقام جعل للجمام أو الموت لونين يختلفان باختلاف السمرة والبياض في ألوان القنا والسيوف يقابلها لونا الماء والعشب ؛ ليرمز إلى أسباب الحياة والموت .(16)

وتلعب الاستعارة في قصيدة (فتح الفتوح) وكذلك التشبيه دورا بارزا في تقديم أبهى الصور الشعرية ؛ دليل معطى خيالي ثري ، ودليل تقدم عقلي وفلسفي لا يخفى على ذي رؤية نقدية و على ذي حاسة فنية حسنة الذوق والتلقي . ويمكن اختزال هذه الصور الشعرية في النمذجة التالية وهي غيض من فيض . لقد استعار (تفتح أبواب السماء) وكذلك (تبرز الأرض في أثوابها القشبية) وكان ذلك بغية تجسيد معنى النصر على المستوى الديني والقومي ؛ إذ السماء لفظة مادية بصرية تشرع أبوابها ابتهاجا بفعل ذاتي، والأرض وهي أيضا لفظة مادية شبهها بامرأة تنترن بأجمل حلة لتستقبل الخبر السعيد (17).

فَتَحْ تَفْتَحْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ // وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ

ثم يقول :

حَتَّى إِذَا مَخَضَ اللَّهُ السِّنِينَ لَهَا // مَخَضَ الْبَخِيلَةِ كَانَتْ رُبْدَةَ الْحَقْبِ
وفيه تشبيه لمدينة عمورية ، إذ جعل قيمتها كالزبدة التي هي خلاصة عملية المخض للحليب ؛ مستعيرا عملية المخض للسنين . والعنص الممدوح هو صاحب العزة القائم بذلك .

وتظل الفكرة التي تلح على الشاعر هي هي ؛ من حيث إرجاع أسباب النصر والظفر إلى البذل والتضحية ؛ ولكن التضحية في هذا البيت تتعمق أكثر ؛ فالموت المشار إليه في (الحمامين) وأدواته (البيض والسمر) من السيوف والرماح ؛ ماهي إلا المقدمة للوصول إلى النتيجة (دلو الحياتين // من ماء ومن عشب) والقاعدة الكبرى الملخصة لهذه الفلسفة هي (طريق الراحة التعب) . وتظل المقابلة / والتضاد سمة بلاغية الهدف منها تقوية المعنى ، ووسيلة من وسائل الربط المعجمي ؛ تساهم في وحدة النص ، وإبراز المخزون اللغوي للشاعر . ومن خلال الثنائية الضدية (الحياة والموت) تنتظم نواميس الكون ؛ إذا عرفنا أن الحياة متصلة لا انقطاع لها ، وليس الموت والحياة سوى وجهين من وجوه الوجود . لذلك على الإنسان أن يعيش كريما ، ولا يهاب أسباب الموت ؛ فأساببه في فلسفة الشاعر هي طريق الحياة المزدهرة ؛ إنها حياة (الماء والعشب) وفي الماء والعشب ما يشي بالخصب والخير العليم . (19)

ولا يخفى مايشكله التكرار ، والحروف المختصة من أهمية في هندسة البناء الفني للنص ؛ إن كان على المستوى الشكلي ، أو على مستوى المضمون ؛ فكلاهما يعملان على تعزيز النغمة الموسيقية المتساوية ، ويحقق التوازي في البنى التركيبية . يمكن ملاحظة ذلك في الأبيات التالية :

كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاها مِنْ سَنَا قَمَرٍ // وَتَحْتَ عَارِضِها مِنْ عَارِضِ سَنَبٍ
كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أسبابِ الرقابِ بها // إِلَى الْمُخَدَّرَةِ العَذراءِ مِنْ سَبَبٍ
كَمْ أَحَرَّرَتْ قُضْبُ الهِنْدِيِّ مُصَلَّةً // تَهْتَزُّ مِنْ قُضْبٍ تَهْتَزُّ فِي كُثْبٍ

في الأبيات السابقة تتصدر كل بيت أداة (كم) يليها مباشرة (فعل ماضي) ومن شأن هذا التكرار تعضيد التوازي ، وإحداث الانسجام بين مكونات البنى التركيبية . يلاحظ ذلك أيضا في أشباه الجمل (في قطع إلى المخدرة - من سبب) ، ثم في الجمل المتشابهة والمتساوية في النغمة الموسيقية (تهتز من قضب - تهتز في كُثب) وهكذا يجري في معظم أجزاء ومقاطع القصيدة ؛ مما يعمل على تحقيق تناغم نحوي جميل ومتناسب ، ويضفي على النص ثوبا فضفاضاً رائعاً ورائقا في شكله ومعناه . (20)

ونجد في بعض المواطن توظيفا موفقا (للإطناب والإيجاز) معا ؛ حيث يلجأ إلى الإطناب اللفظي كما في قوله في مقدمة النص :

بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سَوْدُ الصَّحَائِفِ // فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ

وكذلك في:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

في حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

ويجاور هذا الإطناب (إيجاز) شديد ؛ خاصة عندما أراد أن يرفع كثيرا من مقام الممدوح . هذا الممدوح الذي صنع من جلائل الأعمال في هذا الفتح المؤزر ما يجعله لوحده - يوم الوغى - بمثابة الجيش العظيم BA قدم الشاعر ذلك من خلال أسلوب بديعي مناسب ومتساق مع فداحة المضمون هو (الإيجاز) ؛ إذ تشكل الهبة السريعة من قبل (المعتصم) في نجدة صاحبة (وامتصماه) فعلا لا يحتمل كثيرا التفاصيل ، ناهيك المكوث الطويل ؛ لكنه يتطلب اجترار الفعل من خلال سرعة الإنجاز وفي كثير من الأحيان تؤدي بعض الجمل وأن كانت قصيرة المبني ، المعنى الكبير ؛ لأنها شديدة الإيحاء يبدو ذلك في قوله :

لو لم يَفُذْ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَغَى لَغدا // من نَفْسِهِ وَحَدَّاهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ (21)

وتعمل المبالغة مرة أخرى على تأنيث مشهد معركة فتح الفتوح من خلال مفارقة ضدية شكلت فيها مجموعة الدوال لبنات أساسية في البنية التركيبية للصورة التي لم يعد بالإمكان استبعاد إي منها من طول ماتنضح به من جمال ؛ حتى تلك التي تمثل الجانب السوداوي تكاد تمنحها الصورة الجميلة بعدا إشراقيا ؛ وتندغم في الجمال والإيجاب ؛ فربع مية المعمور يطيف به (غيلان) الشاعر لم يعد منظره أبهى من ربع (عمورية) الخرب والنيران تشتعل به ! ، وحسن المنقلب ودواعي البشاشة ، جاء بالأصل من سوء المنقلب ! .

مَا رُبِعَ مِئَةً مَعْمُورًا يُطِيفُ بِهِ / غَيْلَانُ أَبْهَى رَبِيٍّ مِنْ رَبْعِهَا الْخَرْبِ
وَحَسُنَ مَنْقَلَبٌ تَبْقَى عَوَاقِبُهُ / جَاءَتْ بِشَاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مَنْقَلَبٍ

وجمال الصورة تتشكل من خلال (الربع المعمور) و(الربع الخرب) ، و(حسن المنقلب) و(سوء المنقلب) ؛ والمفارقة أن يزهو (المعمور) ويعشوشب من بين نيران الربع (الخرب) ، وكذلك في البيت الثاني يتجلى (حسن المنقلب) ويزهو من (سوء المنقلب) ؛ لقد سلبت جملة (جاءت بشاشته) كل مايتوقعه المتلقي من نتائج سلبية وسوداوية في (سوء المنقلب) ؛ ويكتسب البناء قوة ، ويزداد ألقا من طول عناية مؤلفه بموسقته من خلال تكثيف (حرف الباء) فتكراره يعمل على تصاعد الصوت الحاد المتجانس أصلا مع موضوع القصيدة ، وكذلك يتساق مع القافية . ثم نلاحظ هذا التكثيف الموسيقي للحروف وهذه المرة مع (حرف السين) الذي له وقع خاص في نفس المتلقي ، وكذلك له علاقة صوتية مع لفظة (السيف) وهي لفظة مركزية في النص ؛ كونها الوسيلة الأولى ، والمصدر الرئيس للقوة في المعركة :

بِسُنَّةِ السَّيْفِ وَالْخَطِيٍّ مِنْ دَمِهِ / لَا سُنَّةَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ مُخْتَضِبِ

نلاحظ في هذا البيت تكثيفا للسين في (بسنة - السيف - لا سنة - الإسلام) وكذلك التضعيف في (بسنة - السيف - الخطي - الدين) ناهيك عن المدود في (السيف - الخطي - لا سنة -

(الدين - الإسلام) . ثم في هذا البيت تكريس وتأكيد آخر على تقديم الحقيقة المادية والتعويل عليها ممثلة بالسيف ، وتأخير مادون ذلك من أقوال المنجمين وأصحاب الكتب .

ويشكل الفعل (كمن) المتصلة به تاء التأنيث الساكنة والعائدة إلى لفظة (عواقب) مصيدة فيها من قوة التدبير والاحتراس والوثوق بالنصر ما يقلب موازين المعركة لصالح (الكامن) وهو اسم فاعل يعود على (أعصر) جمع عصرو الحاضنة للزمن الطويل ؛ وتشى بأن المسلمين الذين تجهزوا لقتال الروم قد أخذوا من الوقت القدر الكافي ؛ مما لا يدع مجالاً للهزيمة . على أن مسرح المعركة هنا مؤثث من خلال دوال معنوية / مجردة (الكفر/ أعصر) ؛ وجمال الصورة يتبدى فيها من كون الشاعر قد ضخ فيها الدم والروح ؛ فماجت بالصوت ، والحركة ؛ فالكفر المخفوض ناله من كمين الأعصر ، وعواقب الزمن ماتحقق نصرا مؤزرا على أسنة الرماح السمر والقضب .

يأتي ذلك في ختام النص وقد لخص الشاعر الغاية العظيمة ، والهدف السامي الذي تحدى من أجله (خليفة الله) و(إمير المؤمنين) المرجفين والمتخاذلين عن أمر الجهاد المقدس ؛ وقدى أضفى على الممدوح (الخليفة المعتصم) من خلال الألقاب والصفات الدينية ما يبرر للأمة واجب الجهاد ، والدفاع عن حرمة المسلمين واستطاع من خلال المقابلة أن يجعل من معركة المعتصم معركة ملحمة تجمع بين حضارتين هي حضارة الإسلام وحضارة الشرك وبذلك لم تعد معركة المعتصم معركة دنيوية بل استحالت معركة يخوضها الإسلام ضد أعدائه المشركين . وعلى هذا النحو يسمو أبوتمام بهذه الحرب إلى مصاف الحروب الجهادية المقدسة ؛ أن أنزل المشركين في منحدرات الأرض وأسافلها ، وارتقى بالمسلمين إلى مرتفعات الأرض وأعلىها . (22)

خَلِيفَةُ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَجَمٍ
مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبٍ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا
وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ
أَبْقَيْتَ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمِمْرَاضَ كَأَسْمِهِمْ
صُفَرَ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ

ويلاحظ في هذا المقطع الأخير أن الحركة الغالبة والمرتبطة بأحداث المعركة مبنية على الجمل الفعلية خاصة في البيت الأخير الملخص لنتيجة المعركة (أَبْقَيْتَ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمِمْرَاضَ كَأَسْمِهِمْ // صُفَرَ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ) على اعتبار أن الفعل تجسيد لحدث كامل وكلما كثرت الأحداث عبرت عنها

الأفعال . ثم نجد أن التضاد قد حدث في زمنين (الماضي والمضارع)؛ مما هيا للشاعر الطريق لخلق تضاد مركب ، وكذلك النسق الطباقى الذي اضفى حيوية على القصيدة وجعلها أكثر قدرة على الإيحاء ؛ كون ألق التصوير الأصيل يولد من صدمة التضاد .(23)

الخلاصة :

كشفت الدراسة عن شاعر كبير ؛ يعتبر في عصره إمام التجديد ؛ كسر رتابة القصيدة التقليدية وفتح النص الشعري إلى آخر مصراعية لكل ماهو عقلي وخيالي وفلسفي . وتعتبر قصيدة (فتح الفتوح) في مدح الخليفة المعتصم من أبهى قصائد الفتح في التراث العربى الإسلامى ؛ لما تمثله هذه القصيدة من مكانة خالدة ؛ لخصوصيتها وفرادتها ؛ كونها ملحمة شعرية غاية في التنميق البديعي ، وفيها من حسن التنسيق ، وجمال التركيب وجديد الاستعارة وبلاغة التشبيه مالم نعهده في شعراء زمانه . لقد عول الشاعر على المعطيات الموضوعية ، والمسلّمات المادية ؛ رافضا ومتحديا المنجمين وأصحاب الكتب مفندا مزاعمهم ومبطلا حججهم وقد حالفه الصواب فيما ذهب إليه ؛ فكانت معركة عمورية من المعارك التي يزهو بها التاريخ العربى الإسلامى ؛ لما تمثله من روح جهادية صادقة ، واصرار لحدود له من قبل المعتصم وجنده في نصرة الدين ، ودحر الأعداء .

المراجع :

(1) آلاء جرار ، من هو أبوتمام ؟ ، موقع موضوع ، 19يناير 2020م

(2) ينظر ، د. محمد السيد عبد الرزاق ، الإعجاز البلاغى فى التقديم والتأخير ، مقالة

ديسمبر 2019م منشورة على

FacebookTwitterEmail (3)

(3) ديوان أبي تمام ، دار صعب ، بيروت ، لبنان ، شرح وتعليق د. شاهين عطية، ص: 14-18

(4) د. عبد الحليم محمد حسن ، الفخر والحماسة فى الشعر العربى، الألوكة الأدبية واللغوية ، فبراير 2012م .

- (5) ينظر ، ابن جني: الخصائص- ج ٣ تحقيق: محمد علي النجار، ط دار الهدى- بيروت- لبنان- ط٢، د.ت، ص : ١٢٧
- (6) ينظر ، د. عبد الحليم محمد حسن ، الفخر والحماسة في الشعر العربي، مرجع سابق .
- (7) ينظر عبد القادر الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، جامعة اليرموك 1980م ، ص : 264
- (8) ينظر ، فهد محسن فرحان ، التوازي في لغة القصيدة العراقية الحديثة ، مهرجان المربد الشعري الرابع عشر، بغداد ، 1998م ، ص : 30
- (9) د. إبراهيم الحمداني ، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية ، كلية التربية، جامعة الموصل ، مجلة كلية التربية الأساسية ، جامعة بابل ، أيلول 2013م، ص : 68
- مجد محمد الباكير ، فقه اللغة العربية ، دار مجد لاوي ، عمان ، الأردن، 1986م ، ص : 73 (11)
- (12) ينظر ، موقع ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، مادة (مفارقة)
- محمد عباس عرابي ، المفارقة الشعرية المتنبي أنموذجاً ، موقع ، مداد ، أغسطس 2020 (14) ينظر ، د. عبد القادر الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، مرجع سابق ، ص : 162 (13)
- (14) ينظر ، د. عبد القادر الرباعي ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، مرجع سابق ، ص : 16
- (15) ينظر ، المحقق محمد عبده عزام ، ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، م 1 ، ص : 49.
- (16) ينظر ، شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، مصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ، ط 9 ، 1976م ، ص : 259
- (17) ينظر ، انعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، دار الرائد العربي ، بيروت، لبنان 1957م ، ص : 375.
- (18) ينظر ، محمد الأمين شيخة ، البنية الدلالية في شعر أبي القاسم الشابي، جامعة الشهيد حمى الخضير – الوادي ، الجزائر ، رسالة ماجستير ، 2019- 2020م ، ص : 65
- (19) د. إبراهيم الحمداني ، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية ، مرجع سابق، ص : 72
- (20) ينظر ، انعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص : 377
- (21) ينظر شرح قصيدة فتح الفتوح ، المرجع السابق .
- ينظر ، إبراهيم الحمداني ، بنية التوازي في قصيدة عمورية ، مرجع سابق ، ص : 72.
- (22)